المحاضرة 05: أثر القرآن الكريم في تطور الآراء النقدية القديمة.

1-أهمية القرآن وعلومه في الدراسات اللغوية والأدبية:

نشأت الدراسات العربية بفروعها المختلفة، متصلة بالقرآن الكريم، فكان القرآن هو المحور الذي دارت حوله تلك الدراسات ، سواء منها الدراسات التي ترتبط ارتباطا مباشرا بتفسير القرآن، وتوضيح آياته، وتبيين معناه واستنباط أحكام الشريعة منه، أو تلك التي تخدم هذه الأغراض جميعا، بالبحث في دلالة اللفظ، واشتقاق الصيغ وتركيب الجمل، و الأسلوب والصور الكلامية، واختلافها باختلاف المقام، فقد ارتبطت اللغة بالقرآن وعلومه، ارتباطا وثيقا في العصور الإسلامية كلها، وكان الباعث على اهتمام علماء اللغة، بجمع الشواهد اللغوية، وتقعيد اللغة باعثا دينيا، هو ضبط نصوص القرآن الكريم، وتعليم الطلاب لغة القرآن.

ولا شك أن الحفاظ على كتاب الله وفهم تعاليم الإسلام كان السبب القوي لنشأة الدراسات اللغوية عند العرب، بعد أن ظهر الاختلاط بين العرب والعجم إثر الفتوحات الإسلامية، وخيف على الإسلام وكتابه من أثر ذلك. وقد برزت نتيجة لذلك فروع الدراسات اللغوية والأدبية والتي يعدّ أهم مجالاتها ما يلي:

- **المعاجم العربية:** حيث ذهبت طائفة من العلماء إلى البادية لأخذ اللغة من الأعراب الفصحاء، وتدوينها صافية لم تشبها شوائب العجمة التي بدأت في الدخول إليها من الأقطار المفتوحة. ومن العلماء الأجلاّء الذين أبلوا بلاءً حسنا في ذلك " الخليل بن أحمد الفراهيدي، والأصمعي، ويونس بن حبيب الظبّي، وأبو زيد الأنصاري وغيرهم. في الوقت الذي أخذ الناس في الصدر الأول للإسلام يسألون كبار الصحابة عن تفسير بعض آيات القرآن الكريم وغريب ألفاظه.

- **الشعر العربي:** شعر العلماء منذ الصدر الأول للإسلام، بحاجتهم إلى الشعر العربي، للاستعانة به في فتح مغاليق الألفاظ، والأساليب الغريبة الموجودة في القرآن الكريم، والأحاديث النبوية الشريفة، فأكبوا عليه يروونه، ويحفظونه ويدرسون أساليبه ومعانيه. وما يدور فيه من ذِكرٍ لأيام العرب ووقائعهم، ولولا هذا الباعث الديني، لاندثر الشعر الجاهلي، ولم يصل إلينا منه شيء. يقول ابن عباس: " الشعر ديوان العرب، فإذا خفي علينا الحرف من القرآن، الذي أنزله الله بلغة العرب رجعنا إلى ديوانها، فالتمسنا معرفة ذلك منه". ويقول أيضا: " إذا سألتموني عن غريب القرآن، فالتمسوه في الشعر، فإنّ الشعر ديوان العرب ". فكانت دراسة القرآن الكريم من دواعي الاهتمام بالشعر.

- **النحو العربي:** فإذا نظرنا إلى النحو العربي، فإننا نجد أن الغيرة على القرآن الكريم، وصونه من التحريف على ألسنة الأعاجم كانت السبب في وضع قواعده، وتروي لنا الأخبار أنّ أبا الأسود الدّؤلي كان أول من وضع النحو، وأنّ السبب في ذلك أنه سمع قارئا يقرأ: "أنَّ اللهَ بريءٌ من المشركينَ ورسولُهُ " سورة التوبة. الآية: 03، بكسر اللام من: "رسوله" فغضب لذلك، وكان هذا حافزا له على وضع مبادئ النحو.

ولم يكن اللحن في عصر الرسول عليه السلام، وعصر الخلفاء الراشدين ظاهرة عامة، تتسرّب إلى كل طبقة وتمتد إلى ألسنة العوام والخواص، بل كان محصورا في فئة الموالي والعبيد الذين دخلوا الإسلام، أما في العصر الأموي حيث امتدت رقعة الدولة الإسلامية من المحيط إلى الخليج فقد انتظم في سلك الإسلام كثير من الأجناس الذين كانوا يتحدثون لكنات مختلفة، ومثل ذلك يقال في الدولة العباسية حيث قويت شوكة الموالي، فاهتم العلماء بالنحو العربي وقواعده حماية للقرآن الكريم من اللحن والخطأ.

- **البلاغة:** أثار القرآن الكريم منذ اللحظات الأولى لنزوله حركة فكرية عند متلقيه، مما جعلهم يلتفون إلى ما جاء به في أساليب التعبير والبيان، ويُنَقِّبون عن كنوزها، ويوازنون بين صنوف الكلام المختلفة. فكان القرآن الكريم هو العامل الرئيس الذي ساعد على الشروع في الدراسات البلاغية بمختلف اتجاهاتها وكان هذا العامل أهم البواعث في إثارة الهمم للبحث الجاد عن ترتيب وجوه الكلام والتمييز بين الأساليب. فكان الدافع للاهتمام ببيان القرآن في

أول الأمر هو الدفاع عن الكتاب العزيز أمام نزعات الشك ورد المطاعن، ثم شرعت دراسات جادة في بناء منظومة واسعة غرضها شرح أَوجُه إعجاز القرآن ودراسة أسلوبه. وهذه الدراسات زودت مسيرة علم البلاغة بفيض من الفصول والأمثلة التي اعتمدتها مصنفات علوم البلاغة. وتذكر المصادر العربية أنّ أبا عبيدة معمر بن المثنّى كان من أوائل من ألّف فيها.

- **الرسم الإملائي:** (الكتابة): والرسم الإملائي لا شك قديم وسابق للوقت الذي أنزل فيه القرآن، غير أنّ العناية بالقرآن الكريم وصيانته من اللّحن هي التي دعت العلماء في الصدر الأول، إلى البحث عن طريقة تعصم من يتلو القرآن الكريم من الوقوع في اللحن. حين القراءة من المصحف، بسبب خلوّه من رموز الحركات. وتنسب الروايات الإسلامية إلى أبي الأسود الدّؤلي أنه كان أول من فكر في وضع رموز للحركات يضبط بها الرسم القرآني. ثم جاء الخليل بن أحمد فوضع الشكل الذي يكتب به حتى الآن.

وبهذا يتضح أن القرآن الكريم كان محورا لجميع الدراسات العربية التي قامت في الأساس لخدمته.

2-الدراسات القرآنية وأثرها في النقد الأدبي:

تعد نهاية القرن الثاني للهجرة بداية مرحلة مهمة في النقد الأدبي استمرت خلال القرن الثالث وتمخضت عن انتاج العديد من المؤلفات النقدية أبرزها: كتاب "طبقات فحول الشعراء" لابن سلام الجمحي، وكتاب "البيان والتبيين" للجاحظ، وكتاب "الشعر والشعراء" لابن قتيبة، وكتاب "الكامل" للمبرد، وهي كتب تتناول النقد من جهتيه النظرية والعلمية.

وإلى جانب هذه الكتب ظهرت دراسات قرآنية تهتم بأساليب القرآن، وبلاغته، وبيانه وتفسيره. منها:

- كتاب **"مجاز القرآن"** لأبي عبيدة (ت 209هـ)، وهو محاولة في تفسير غريب القرآن، وبيان نهجه، ومجازه في التعبير، ووجوه نظمه التي يوجد مثلها في كلام العرب. من إضمار

الكلمة، أو الاستغناء عن تتمة الجملة أحيانا، أو بإرجاع اللفظ لواحد من اثنين، أو تقديم أو تأخير، والاستشهاد للكثير من ذلك بأمثلة من كلام العرب.

- كتاب **"معاني القرآن"** للفراء (ت 207هـ)، والذي اهتم بالتوسع في التخريج النحوي، وبيان القراءات وأوجه التفسير، إلى جانب عنايته بالشرح اللغوي، والتنبيه إلى ظواهر الاستعمال، والاستشهاد بالشعر.

- وكتاب **"مشكل القرآن"** لابن قتيبة. والذي اهتم فيه ببيان أسلوب القرآن وجريه على مجازات العرب في كلامها من الاستعارة، والتقديم والتأخير والحذف، والتكرار، والكناية وما إلى ذلك من هذه الظواهر.

وهذه الكتب وغيرها من الدراسات القرآنية في تلك المرحلة كتب في صميم النقد فهي تحاول فهم النص، وظواهر الاستعمال اللغوي، والتركيبي فيه، ووجوه مجازه.

ويتضح مما سبق أنّ المؤلفات النقدية في تلك المرحلة انقسمت إلى شكلين من الدراسات هدف قسم منها إلى ترتيب طبقات الشعراء وبيان خصائصهم، وبيئاتهم، والبحث في سبل البيان والخطابة وما يعرض لها من مظاهر الحسن والقبح. وقسم آخر اهتم ببحث ظواهر اللغة وفقهها وطرق الأداء، ونظام الجملة العربية في إعرابها وتركيبها، وما في الكلام العربي عامة من فنون التصوير وكان القرآن الكريم أساس هذا النوع من الدراسات.

وأنتج القرن الرابع الكثير من المؤلفات والدراسات النقدية في ميادين مختلفة؛ فقد اتسع التأليف في تراجم الشعراء وخصائصهم من ذلك كتاب **"الأغاني"** لأبي الفرج (ت356هـ)، واتسعت الموازنة بين الشعراء، والفصل فيما يثار حول شاعر بعينه من قضايا جدلية ونقدية، من ذلك كتاب **" الموازنة بين الطائيين أبي تمام والبحتري"** لأبي القاسم الآمدي (ت 371هـ)، وكتاب **" الوساطة بين المتنبي وخصومه"** للقاضي الجرجاني (ت392هـ)، وظهر أثر الاحتكاك بالدراسات اليونانية في كتاب "نقد الشعر" لقدامة بن جعفر.

وإلى جانب هذه الكتب النقدية المتخصصة في قضايا الأدب، اهتمت دراسات أخرى في القرن الرابع بإعجاز القرآن ومختلف جوانبه، من ذلك الاهتمام بأسلوبه وبلاغته، فألف

الرماني (ت 374هـ) **"النكت في إعجاز القرآن العظيم"**، والذي توقف فيه عند بلاغة القرآن وإعجازها. وألف الباقلاني (ت403هـ) كتاب **"إعجاز القرآن"** الذي شرح فيه نظم القرآن. وهي الفكرة التي سيطرت على التفكير النقدي عند عبد القاهر الجرجاني في كتابيه **"أسرار البلاغة"** و**" دلائل الإعجاز"**.

وبالنظر لمعظم الكتب النقدية بمختلف ميادينها تبرز فكرة إعجاز القرآن، سواء كانت غاية هذه الدراسات، أو ثمرة من ثمارها. وهنا يظهر أثر القرآن الكريم، في تربية الذوق العربي من جهة، والدفع بعجلة النقد الأدبي القديم من جهة أخرى، ذلك أن الكثير من الدراسات النقدية التي يفخر بها تاريخ النقد الأدبي كان القرآن الكريم باعثا لها، وسببا في تشكلها، وكان فهم غريبه، وأساليبه، غاية العلماء الذين كرسوا جهودهم لفك أسرار بلاغته، والإلمام بمفاتيح بيانه.

ويتضح مما سبق أن القرآن كان صاحب الفضل في تربية الملكة النقدية عند العرب، وتطورها في الدراسات القرآنية والنقدية والبلاغية، وكان لأسلوبه الأثر في مقاييس الأدب وموازينه، وكان الشاهد من آياته الحكم، والمرجع في فنون القول، وضروب الأساليب.